قضايا الصوت والدلالة عند ابن جني في ضوء علم اللغة الحديث

الأستاذ المساعد الدكتور
كاظم عودة خشان
Kadhimo.khashan@uokufa.edu.iq
جامعة الكوفة ـ كلية الآداب

Issues of sound and semantics according to Ibn Jinni in the light of modern linguistics

Assist. Prof. Dr.
Kadhem Odeh Khashan
University of Kufa - College of Arts

الملخص:-

نَظرَ ابن جنّي (ت٣٩٢هـ) إلى اللّغة على أنّها أصواتٌ تَحمل دَلالات يَتفاهم البَشر بها ويتواصلون، إذْ عرّف اللّغة بقوله: "إنها أصواتٌ يُعبّر بها كلّ قوم عَن أغراضِهم"، وهو تعريفٌ دقيقٌ يبرز الجوانبَ المميّزة للّغة، فهو يؤكّدُ أولاً الطبيعة الصّوتيّة ويذكرُ وظيفَتها الاجتماعيّة في التّعبيرِ ونقلِ الفكر، ويُشير إلى اخْتلافِ البنية اللّغوية باختلافِ المجتمعات الإنسانية.

والذي يهمّنا في هذا المقام تصوّرُ ابن جنّي الصّوتي عنِ اللّغة، إذْ يؤكدُ بأنّ الأساسَ في الظاهرةِ اللّغوية هو النّطْق وهو أساسٌ تَقومُ عليه أكثرُ الدراسات المعاصرة التي تعنى بالمنطوقِ أولاً، ثمّ تأتي الكتابةُ في الدّرجةِ الثانيةِ التي تُعدّ تصويراً لهذا المَنطوق.

ويُعَدّ ابن جنّي أوّل مَن جعلَ الأصواتَ علماً ودلّ به على دراسةِ الأصوات والبحث في دلالتها ومشكلاتها. وقدْ وردت التسميةُ (علمُ الأصوات) في أهمّ كتبِ ابن جنّي (سرّ صناعة الإعراب) وهو أوّلُ كتابٍ يؤلفُ في هذا العلم.

الكلمات المفتاحية: ابن جني، دلالة الصوت، علم اللغة الحديث، الحرف، الفونيم، المورفيم.

Abstract:-

According to Ibn Jinni, language is made up of sounds with meanings that allow people to comprehend and speak with one another. "They are sounds with which every people expresses their purposes," he said in defining language. This definition is accurate and emphasises the unique qualities of language. It begins by reaffirming that it is vocal in nature and discussing its social role in expression and transmission. The diverse language structures found in various human groups are also shown by thought.

The phonetic conception of language proposed by Ibn Jinni worries us in this regard because he claims that pronunciation is the foundation of the linguistic phenomenon. This is the basis upon which most modern studies are based, which focus first on the spoken word and then writing in the second degree, which is thought to be a representation of what is spoken.

Ibn Jinni is credited with being the first to turn sounds into a science, teaching him about the study of sounds and investigating their importance and issues.

The most influential work was written on the subject of sounds science, Ibn Jinni's The Secret of Syntactic Syntax, made reference to the name.

Key words: Ibn Jinni, the significance of sound, modern linguistics, letters, phonemes, and morphemes.

أولًا: المقدمة:

نشأ الدرس اللغوي بمعناه الواسع، ضمن سياقات ثقافية، وحضارية وجغرافية مما جعل الفكر العربي يكشف عن خصائص الدرس اللغوي العربي التي تنتمي إلى اللغة العربية ذاتها، فظهر في الفكر اللغوي أعلامه كابن جني موضوع دراستنا، فقد تناول اللغة العربية في مستوياتها اللغوية المختلفة كالصوتية، والمعجمية، والدلالية، تطرق ابن جني إلى كيفية حدوث الجهاز النطقي مبينًا حقيقته، واعتماده أي " الصوت" على الهواء المندفع من الرئتين، ومن هذا المنطلق أردنا أن نجلي جوانب من إسهامات ونتائج البحث الصوتي عند أحد أعلام الفكر اللغوي العربي، في بحث استخدمت فيه المنهج الوصفي التحليلي، في خمسة مباحث رئيسية متفرعة منها عدة عناصر.

ثانيًا: مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث في الإجابة عن السؤال: إذا كان ابن جني قد وصف الأصوات العربية وحدد مخارجها وصفاتها، فأدرجت جهوده ضمن ما يسمى الآن بعلم الأصوات العام، فما هي القضايا التي تحدث عنها ابن جني والتي يمكننا إدراجها ضمن محاور علم الأصوات، خاصةً أنّه أوّل مَن جعلَ الأصواتَ علماً ودلّ به على دراسةِ الأصوات والبحث في دلالتها ومشكلاتها.

ثالثًا: أهمية البحث:

تكمنُ أهمّيةَ هذا البحث في أهمّيةِ الثروة العلميّة، واللّغوية، التي خلّفها لنا عالمُ اللّغةِ أبو الفَتْح عُثمان بن جنّي. فقد أفادَ العَربيّة بالكَمّ الهائل من المصّنفات القيّمة، التي لا يستَغني عنْها اللّغويون في حياتِهم. لذا فإنّ الحديثَ عن ابن جنّي، ومعرفة ما ألّفَه في مجالِ اللّغة، والأبواب التي طرَقها في هذا المَجال، وما تفرّدَ به، وما تابعَ فيه من سَبقه، لَغاية في الأهمّية.

ومن خلال ذلك تَتَجلّى عَبقريّته، وحِذْقه باللّغةِ ليكونَ واحداً مِن أهمّ العُلماء وألْمَعهم في هذا المجال.

رابعًا: الدراسات السابقة:

- البحث الصوتي عند ابن جني لـ زبيدة طالب، وهي رسالة ماجستير مخطوطة بجامعة القاهرة ١٩٧٦ م.
- ملامح الصوتيات التركيبية عند ابن جني، سميرة بن موسى، من خلال كتاب الخصائص، وسر صناعة الاعراب والمصنف، الجزائر(٢٠١١-٢٠١٢ م).
- الأداء الصوتي من وجهة نظر ابن جني في مهارة الكلام لدى طلبة جامعة مولانا مالك إبراهيم، ألفي حميدة، رسالة ماجستير، نيجيريا، ٢٠١٨م.

المبحث الأول

جِهازُ النطْقِ عند "ابن جني"

يُعَدّ جهازُ النّطْق من أَهمّ المباحث الصّوتيّة التي تناولَها كثيرٌ من العُلماء بالدّرس والتّحليل، إذْ توصلوا إلى أنّ الإنسانَ عندما يصْدرُ أصْواتاً تمرّ بجهازٍ لنُطْقها، وهذا الجّهازُ مُكوّنٌ من جملةٍ من الأعْضاء، منها ما هو ثابتٌ ومنها ما هو مُتحرّكٌ. فالثّابتُ هي الأسْنانُ واللّثة والغار والجدار الخَلفي للحَلْق، أمّا المُتحرّك فهي الشّفتان والفَك الأسْفل والطّبق وفيه اللّهاة والحُنجَرة والأوتار الصّوتيّة، وقدْ تَتبّع الباحثون مَسار الصّوت منذ خروجه من الرئتين ووصوله الى الفَم، فهو يَمرّ بالقصبة الهَوائية ثمّ تَستقبله الحُنجرة فيَمرّ بالوَترين الصّوتيين ليَخرجَ إلى الحَلْقِ فيَحتكّ باللّسان والحَنَك فيلتقي بالشّفتين فيخرجُ من الفم، وهناك نصٌّ مهمٌ "لابن جنّي" يتحدثُ فيه عن جهاز النّطْق إذْ يقول:" ومنهم من شبّه الحَلْق والفَم بالنّاي، لأنّ الصّوت يَخرجُ منه مُسْتطيلًا رقيقًا ساذجاً، وما يَتدفّق في الحَلْق والفَم غُفْلا بغير انتباه، لذلك إذا وَضع عازف الفلوت (المزمار) أصابعه على أوتار النّاي المُتّسقة وحَرّكها بين أصابعه، اختلفت الأصوات، ويسمع لكلّ خرق منها صَوْت لا يشبه صاحبه وبالمثل إذا انْقَطع الصّوت في الحَلْق والفَم اعتماداً على جبهات مختلفة كانَ سَبب استماعنا لهذه الأصوات المختلفة"[1] وأنّ سرّ الاختلاف في الأصوات الصادرة من هذا العضو والطريقة التي يحدث بها هذا الاختلاف؛ أي عَمليّة النّطْق الميكانيكية، فيقول: " ونَظير ذلك أيضاً وَتَر العُود، فإنّ الضّارب إذا ضَرَبه وهو مُرْسل سَمعت له صَوْتًا، فإنْ حَصر آخِر الوَتر

ببعض أصابع يسراه أدّى صَوْتًا آخر، فإنْ أدْناها قليلاً سمعتَ غير الاثنين ثمّ كذلك كلّما أدنى أصبعه"[٢]. إنّ ابن جنّي يوضّحُ كيفيةَ صدورِ الأصوات اللّغوية واختلافها باختلافِ مَخارجها؛ ولمزيدٍ من التوضيح يأتي بالتشبيهين الآتيين:

أ: يُشبّه الحَلْقَ والفمَ بآلة الفلوت(الناي)، قائلاً:" يخرج الصّوت مستطيلًا أملسَ ساذجًا، كما يجري الصّوت في الألف غُفْلاً بغير صنعة، فإذا وضَع الزّامر أنامله على خروق الناي المنسوقة، ورواحَ بين عمله، اختلفت الأصْوات، وسمع لكلّ خَرق منها صَوْت لا يشابه صاحبه فكذلك إذْا قُطع الصّوت في الحَلْق والفَم باعتماد على جهات مختلفة، كان سبب استماعنا هذه الأصْوات المختلفة"[٣].

ب: ثمّ يقارنُ انبعاثَ الأصْوات مرّةً ثانيةً بخيطِ العُود، قائلاً: " ونظير ذلك أيضاً وتر العود فإنّ الضّارب إذْا ضَربه وهو مُرسل، سمعت له صَوْتاً، فإنْ حَصَر آخر الوتر ببعض أصابع يسراه أدّى صَوْتاً آخر، فإنْ أدْناها قليلاً، سمعت غير الاثنين، ثم كذلك كلما أدنى أصبعه، من أولّ الوتر تَشكّلت لك أصداء مختلفة، إلاّ أنّ الصّوت الذي يؤديه الوتر غُفْلاً غير محصور، تجده بالإضافة إلى ما أدّاه وهو مَضغوط مَحْصور أمْلَس مُهتزاً، ويختلفُ ذلك بقدر قوّة الوتر وصَلابته، وضعفه ورخاوته. فالوَتر في هذا التمثيل كالحَلْق، والخَفقة بالمضراب عليه كأولّ الصّوت من أقصى الحَلْق، وجَرَيان الصّوت فيه غُفْلاً غير مَحْصور كجريان الصّوت في الألف السّاكنة، وما يَعترضه من الضّغط والحَصر بالأصابع كالذي يَعرض للصَوْت من مخارج الحروف من المقاطع، واختلاف الاصوات هناك كاختلافها هنا"[٤].

فإنّ بن جنّي قد عرفَ عمليّةَ حُدوثِ الأصْوات اللّغوية وحاولَ تجسيمَ تلك العمليّة بالتشبيهين السابقين.

فرْق ابن جنّي بين مصطلحي الصّوت والحَرْف، إذ رأى أنّ " الصّوت عام غير مختص، يقال سمعت صَوْت الرجل، وصَوْت الحمار"[٥]، أي أنّ الصّوتَ لا يختصُّ بفئةٍ معينةٍ من الكائناتِ دون غيرها، على حين يختصُّ الحرْفُ بالأصْواتِ البشريّة وحدها.

بعدها يعطينا تحليلاً كاملاً لاشتقاق الصّوت والحَرْف، ولكنّ الطابعَ الصّرفي لا الصّوتي قدْ وسمَ ذلك التحليل، فهو يبحثُ في أصْلِ الكلمتينِ قائلاً:" إنّ الصّوتَ مصدر صات

الشيءُ يَصُوت صوتاً فهو صائت، وصَوّتَ تَصويتاً فهو مُصَوّت"[٦]، وأما الحَرْف فالقولُ فيه وفيما كان من لفظه: أنّ (ح ر ف) أينما وقعت في الكلام يراد بها حدّ الشيء وحدَّته، من ذلك حرف الشيء إنّما هو حدّه وناحيته"[٧]، ومن هنا سُمّيت حروفُ المُعجم حروفاً، ذلك أنّ الحرْفَ حدٌّ مُنقطع الصّوت وغايته وطَرفه، كحَرْفِ الجَبلِ ونحوه. ويَجوزُ أنْ تكونَ سُمّيت حروفاً لأنّها جهات للكَلم ونَواحٍ كحروف الشّيء وجهاته المحدقة به. ومن هذا قِيل: فُلانٌ يَقرأ بحرف أبي عمرو وغيره من القرّاء، وذلك لأنّ الحَرْف حَدّ ما بين القراءتين وجهته وناحيته. ويَجوز أيضاً أنْ يَكون قولهم " حَرْف فلان" يُراد به حروفه التي يَقرأ بها[٨].

فالصّوت إذْن هو ما نسمعُه ونَحسُّ به نتيجةَ الاهتزازات التي تحدثُ في أثناء العَمليّة الصّوتيّة، أمّا الحَرْفُ فهو الرّمزُ المَكتوبُ للصَوْت، وهو الوسيلةُ المستعملةُ للتّعبيرِ عن الصّوت. بمعنى أنّ الحَرْفَ هو المُصطلحُ المجسّمُ للصَوْت.

واللغويونَ العرب المُحدثون لم يَستقروا على مصطلحٍ واحدٍ في قَضية "الصّوت والحَرْف". فبَعضهم يُسمّي الصّوتَ صَوْتًا ورَمزه المكتوب حرفًا، للتفرقة بين الصّوت ورَمزه، ويُحاولُ بعضهم التّخلي تَماماً عن مُصطلح الحَرْف، كي لا يَقعَ في الخَلْط الذي وقعَ فيه القدماء، مستعملًا مصطلح " الصّوت اللّغوي" تعبيراً عن مَفهوم الفونيم عند الغربيين والحَرْف عند العربِ القدماء، ويستعملُ مصطلحَ الصّوت تعبيراً عن الصّوت الذي نسمعُه.

ـ الجهاز الصّوتي عند ابن جني

لم يعطنا ابن جنّي ولا مَن سَبقه من اللّغويين العرب تعريفًا واضحًا للجهاز الصّوتي، ولم يُعرفْ هذا الجهازُ بوصفه جهازًا مهمًا في العَملية الصّوتيّة، نظراً للحالة التي كانَ عليها الطبُّ آنذاك وتخلّف علم التّشريح، فجاءَ الحديثُ عن هذا الجهاز في أثناء دراسة المَخارج ودراسة صفات الحُروف؛ لذلك كانَ الكلامُ عن هذا الجهاز عضواً عضواً، الواحدُ مستقلٌ عن الآخر، وكأنّ تلك الأعضاء مستقلٌ بعضها عن بعض، ولا ترابطَ أو تعاونَ بينها. وعن طريق التّفاصيل التي أتى بها ابن جنّي في كلامه عن الصّوت والنّطق، وعن مميّزات الحروف وترتيبها، نستطيعُ أنْ نعرفَ الأعضاءَ التي تَدخلُ في الجهازِ الصّوتي عنده، وهي: الصّدرُ، والحَلْقُ، والفَمُ، والشّفتان، والخياشيم... أما الصّدر، فهو " أصل النفس"، وضروري لإنتاج الصّوت، وهو النقطة التي يبدأ منها الصّوت خروجه مستطيلاً متّصلاً. ويقصد ابن

جنّي بـ(الصدر) الرئتين وما يحيط بهما. ونلحظ أنّه لا يوجد في الصّدرِ أيّ مخرجٍ من مخارج الحروف[٩]، وابن جنّي هنا يخالفُ المحدثينَ في مصطلح "المخرج"، بقوله: " اعلَم أنّ الصّوت عَرَض يخرج من النفس مستطيلًا متصلًا، حتى يعرض له في الحَلْق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفاً"[١٠]، ثمّ يذكرُها في حديثِه عن المخارج، ويقسّم الحَلْقَ على ثلاثة أقسامٍ: أقصى الحَلْق، والوسط، والأدنى، وأما الفم، فيتكون من اللسان والحنك الأعلى والأسنان، وعلى الرغم من عدمِ معرفة القُدماء للجهازِ الصّوتي المتكامل، فإنّ ابن جنّي استطاعَ أنْ يقدّمَ بدقّته أهمّ الأعضاء المكوّنة للجّهازِ الصّوتي ويعرّفَ وظيفتها في عمليّةِ التصويت.

ـ الحُروف العربيّة

سارَ ابن جنّي على نَهجِ سيبويه(ت١٨٠هـ) ومن اتّبعه من اللّغويين في تقسيم الحروف العربيّة إلى أصولٍ وفروع، بقوله: "اعلَم أنّ أصول حروف المعجم عند الكّافة تسعة وعشرون حرفا. فأولها الألف وآخرها الياء على المشهور من ترتيب حروف المعجم"[١١]، ويسرد الحروف بحسبِ أصولها على النّحو الآتي: الهمزة، والألف، الهاء، والعين، والحاء، والغين، والخاء، والقاف، والجيم، والشين، والياء، والضاد، واللام، والراء، والنون، والطاء، والدال، والتاء، والصاد، والزاي، والسين، والظاء، والدال، والثاء، والفاء، والباء، والميم، والواو[١٢].

ثم يضيف إلى هذهِ الأصول الفروع الآتية: "واعلم أنّ بعد هذه الأحرف التسعة والعشرين قَدْ يكون هناك ستة أحْرف تنطلق منها، بحد أقصى تكون خمسة وثلاثين حرفًا. وهؤلاء الستة هم النون الخفيفة، ويقال الخفية، والهمزة المخفية، وألف المبالغة، وألف الإمالة، والشين التي كالجيم، والصاد التي كالزاي، "وقد تلحق بعد ذلك ثمانية أحرف، وهي فروع غير مستحسنة، ولا يؤخذ بها في القرآن ولا في الشعر، ولا تكاد توجد إلا في لغة ضعيفة مرفوضة غير متقبلة، وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، والجيم التي كالشين❖، والضاد الضعيفة، والصّاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالثاء، والباء التي كالميم، ولا يصح أمر هذه الحروف الأربعة عشر اللّاحقة للتسعة والعشرين، حتى كمّلْتها ثلاثة وأربعين، إلا بالسّمع والمشافهة"[١٣].

وبهذا يكونُ ابن جنّي قدْ انتقدَ الخليلَ في تَرتيبِه للحروف؛ إذْ يرى أنْ يكونَ ترتيبها على النّحـــو الآتـــي: (ء، ا، ه، ع، ح، غ، خ، ق، ك، ج، ش، ي، ض، ل، ر، ن، ط، د، ت، ص، ز، س، ظ، ذ، ث، ف، ب، م، و)، "فهذا هو ترتيب الحروف على مذاقها وتصعُّدها، وهو الصّحيحُ، فأمّا ترتيبها في كتابِ العين ففيه خطل واضطراب، ومخالفةٌ لما قدّمناه آنفا مما رتبه سيبويه، وتلاه أصحابَه عليه، وهو الصواب الذي يشهد التأمل له بصحته"[١٤].

المبحث الثاني

الفونيم عند ابن جني

لم يذكر ابن جنّي هذا المصطلحُ ولكنّه فرّقَ بَين الحَرْفِ والصّوت، فعرّفَ الحَرْفَ بأنّه: " حد منقطع الصّوت وغايته وطَرفه، كَحَرف الجّبل ونَحوه، ومن هنا سُمِّيتْ حروف المعجم حروفاً، ويجوز أن تكون سُمِّيت حروفاً؛ لأنّها جهات للكلم ونواح، كحروف الشيء وجهاته المحدقة به"[١٥]، وقَد عرّف الصّوت أيضاً؛ فقال: " أعلم أن الصّوت يخرج مع النفس مستطيلًا"[١٦].

فقصد بهذا التعريف الصّوت الإنساني، والواضح من خلال تعْريف الحَرْف والصّوت أنّهما مختلفانِ عنده، إلاّ أنّه كثيراً ما يقرنُ المصطلحين معاً، فنجده مثلًا في كتابه (سرّ صناعة الإعراب) يقول: "علم الأصوات والحروف"[١٧]، وفي أحيانٍ كثيرةٍ يستخدمُ المُصطلحين في معنىً واحد، وعلى الرغم من ذلك نجِدُ أنّه أدركَ ظاهرةَ استبدال صَوْت بصَوْت أو ما يسميه المُحدَثون استبدال فونيم مكانَ الآخر، وأكّدَ أنّ استبدال حرف مكانَ آخر يؤدي إلى تغييرِ المعنى، ودرسَ ذلك في كتابِه (الخصائص) تحتَ عنوان" في إمْساس الألفاظ أشْباه المعاني"، وأدركَ أيضًا دورَ الفونيمات (الحُروف) في تغييرِ المعاني وأعْطى أمثلةً كثيرةً على ذلك، مثل: "جعلت الحاء لرقّتها للدلالة على تسرب السائل في تأني وبطء، والخاء لغلظتها للدلالة على فوران السائل في قوّة وعنف"[١٨].

وأمّا مصطلح الفونيم فهو مصطلحٌ غربيّ حديثٌ ظهرَ في الدراساتِ اللّسانية، ولأهمّيته في الدراساتِ الصّوتيّة انتقلَ إلى الدراساتِ العربيّة- كذلك وسَمْنا في هذا الجزء من البحث بـ(الفونيم عند ابن جنّي) ولا نُريدُ بذلك أنْ نبحثَ عن هذا المُصطلح في دراسات ابن جنّي، بلْ نريدُ أنْ نبحثَ عن ما يدلّ على أنّه كانَ على وعيٍ بمعنى الفونيم، وبما أنّنا توصلنا إلى أنّ

الفونيمَ هو أصغر وحدة صوتية تؤدي الى تغير المعنى، والحقيقة أنها لا تتعدى كونها أصوات الحروف المستعملة في الكلام، فطريقنا إلى البحث عن الفونيم هو تَقصّي الحرْف عنده، كيفَ نظرَ إليه؟ وهل فرّقَ بينه وبينَ الصّوت كما فرّقت الدراساتُ الحديثةُ بين الفونيم والألوفون؟ وكيفَ كانت نظرتُه لفونيمات اللّغة العربيّة؟ فقد نظرَ ابن جنّي إلى الحَرْف بأنّه " حدّ منقطع الصّوت وغايته وطَرَفه"(١٩)، وقدْ سمّى المقطعَ حرفاً أيضاً. وهو ما يعْرضُ للصّوْت فيثْنيه عن امتداده، فقال:" فيسمّى المَقطع أيْنما عَرض له حَرفًا بحسب ما ذكرنا أنّه عرّفَ الصّوت قائلًا: " أعلم أنّ الصّوت عَرَض يخرج مع النفس مستطيلًا متصلًا"(٢٠).

إنّ ابنَ جنّي في تحليله للمصطلحين - الصّوت والحَرْف- قدْ فرّقَ بينهما. إلّا أنّ تفريقَه هذا ليسَ كتفريقِ العلماء المحدثين؛ وهذا لأنّنا نجده كثيراً ما يقْرنُ المصطلحينِ معاً، فنجده مثلاً في كتابه سرّ صِناعة الإعراب يقول: " علم الأصوات والحروف".

هذا من جهة نظرته للصَوْت والحَرْف، أمّا من جهة نَظرته للحروف فنجدُ أنّه قدْ تفطّنَ إلى أنّ تغييرَ الأصوات يؤدّي إلى تغييرِ المعاني، وهو نوعٌ من أنواعِ الدّلالة الصّوتيّة. وبهذا قد أدركَ استقلاليةَ الحَرْف، وعدّه فونيماً أو وحدةً صَوْتيّةً مرتبطاً بمعنى في ثباته وتغيّره في موقعه، بحيث يصلح أنْ يكونَ مقابلاً استبدالياً لآخر، فإذا تغيّرَ في مَوقعه من الكلمة وثبتت بقيّة الحروف يعقبُ ذلك اختلافاً في المعنى(٢١).

وقدْ درسَ ابن جنّي هذا الموضوع؛ أيْ موضوع استبدال صوتٍ مكانَ آخر، الذي يؤدّي إلى تغيّرَ المعنى في كتابه (الخَصائص) تحت باب (في إمْساس الألفاظ أشباه المعاني). وقد أشارَ في هذا الباب إلى أنواعٍ مختلفة من الدّلالة الصّوتيّة، من ذلك أنّه تحدّثَ عن حكايةِ الأصْوات الطبيعيّة: " كأنّهم توهّموا في صَوْت الجُنْدُب استطالة ومدّوا فقالوا: صرّ، وتوهّموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا: صرصر"(٢٢).

وقَدْ أشار إلى الدّلالة المستمدّة من الصّيغ الصّرفية، مثل التي على وزن الفَعلان وقالَ إنّها تأتي للاضطراب والحركة نحو النَقزان والغَليان، والغَثيان... والمصادر الرّباعيّة المُضعّفة تأتي للتكرير نحو الزّعْزعة، والقَلْقة وغيرها من الصّيغ(٢٣).

وما يهمّنا في هذا الموضع هو حديثُه عن الدّلالة الصّوتيّة المستمدة من استبدال حَرف مكان حَرفٍ آخر مع تغيّرِ المعنى، ونجده يعرضُ لهذا في قوله: " فأمّا مقابلة الألفاظ بما يشاكل

أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع، ونَهْج مُتْلَئِبٌ عند عارفيه مأموم، وذلك أنّهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سَمْتِ الأحداث المعبّر بها عنها، فيُعَدّلونها بها ويحتذونها عليها"[٢٤].

ثم يضيف ممثلًا وشارحًا، "من ذلك قولهم: خَضِمَ، قَضِمَ. فالخَضْم لأكل الرطب، كالبِطّيخ والقِثّاء وما كان نحوهما من المأكول الرطْب. والقَضْم للصُلْب اليابس؛ نحو قضمت الدابّة شعيرها، ونحو ذلك، وفي الخبر" قد يُدْرَك الخَضْم بالقَضْم أي قد يدرك الرخاء بالشدّة، واللين بالشَظَف.. فاختاروا الخاء لرخاوتها للرّطْب، والقاف لصلابتها لليابس، حَذْوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث"[٢٥]، قال تعالى ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ الرحمن الآية " ٦٦".

إذْن لقد أدركَ ابن جنّي أنّ الحروفَ (الفونيمات) تؤدّي دوراً مهماً في الدَّلالة، وأنّ إحلالَ إحداها مكان الآخر يولّدُ دَلالةً جَديدةً، من ذلك في المثال الأوّل: خضم وقضم. فالخاء تدل على الرخاوة، ومن ثَمّ جاءَ الفعل (خَضْم) للدّلالة على أكل الرّطْب. والقاف تدلُ على الشدّة، لذلك جاءَ الفعلُ (قَضْم) للدلالة على أكلِ اليابس.

وفي المثال الثاني: جُعلت الحاءُ لرقّتها للدّلالة على تسرّبِ السائل في تأنٍ وبطء. والخاءُ لغلظتها للدلالة على فَوَران السائل في قوّة وعُنف[٢٦].

وقد أورد ابن جنّي أمثلةً كثيرةً من هذا القبيل تدعمُ رأيَه في أنّ للفونيمات دوراً مهمًا في الدَّلالة. وإنْ لمْ يصرّح بذلك إلاّ أنّ أمثلتَه وتحليلَه أغْنوا عَن التّصريح[٢٧].

وبهذا يكون قدْ نالَ شَرف السّبقِ إلى مثلِ هذا التّحليل، مُتَقدماً بذلك على جَميع عُلماء اللّغة المحدثين.

وإنّ الفونيم فكرةً كانَ موجوداً في فِكر ابن جنّي، ولذلك توصّل إلى أنّ الفونيم يُميز كلمة عَن أخرى أي يَقوم بالتفريق بَيْن الكلمات، وبه تمكّن من تحديد حروف اللّغة العربيّة التسعة والعشرين، وإنْ كانَ بهذا التحديد مقلداً لسابقيه أمثال الخليل وسيبويه؛ إلاّ أنّ كلامَه عنه تأكيد له. وهذه التي توصّل إليها ابن جنّي هي أهمّ وظائف الفونيم. فإذا كانَ ابن جنّي قد توصّل إليها يعني أنّه كانَ يفقهُ فكرةَ الفونيم وكانَ على وعيٍ بها وإنْ لمْ يصرّح بذلك.

إلا أنّ ما توصّل إليه يُغني عن كلّ تصريح.

المبحث الثالث

الدَّلالةُ الصَّوتيَة عند ابن جني

الدَّلالةُ الصّوتيّة هي تلك الدَّلالة المشتقّة من طبيعة الأصْوات، فإذا حدثَ استبدال أو إبدال صَوْتٍ منها في كلمةٍ واحدةٍ بصَوْتٍ أخر في كلمةٍ أخرى[٢٨]، فهذا يؤدي إلى اختلاف في المعنى أحدهما عن الأخرى، أو هي " المعاني المكتسبة من نطق كلمات معينة "[٢٩].

إنّ الدّلالةَ الصّوتيّة هي الدّور الذي تؤدّيه الأصْوات السّاكنة للكلمة لإظهار المعنى، ضمنَ نطاق تكوين مجموعةٍ من الأصْوات لكلمةٍ واحدةٍ، سواء أكانت هذه الأصْواتُ أحْرفاً ساكنة (صوامت consonants) أم أحْرفاً متحركة (حركات vowels) وتُسمّى بالعناصر الصّوتيّة الأساسيّة، التي يشتقّ منها مجموع أصْوات الكلمات التي ترْمزُ إلى المَعنى المُعجمي، ويَتمّ التحقق أيضاً من المعنى الصّوتي(الدّلالة الصّوتيّة) من خلال التّركيب الكلّي لكلمات الجُملة وطريقة تنفيذها الأداء الصّوتي، وهذا ما يعرفُ باسم العَناصر الصّوتيّة الثانويّة التي تصاحبُ الكَلمة الفرديّة[٣٠].

وتكونُ الدَّلالة الصّوتيّة إمّا ذات دَلالة وظيفيّة مُطّردة، تَخضعُ لنظامٍ مُعيّن وقواعدَ مَضبوطة، وتَعتمد على تَغيير مَواقع الفونيمات، عن طَريق استخدام المقابلات الاستبدالية بَين الألفاظ لإحْداث تَعديل في مَعانيها. عَملاً بأنّ كلّ فونيم يُعَدّ مقابلا استبداليًا لآخر، فتَغييره أو استبداله بآخر يَتبعه بالضّرورة اختلافٌ في المَعنى، وقدْ يكونُ هذا الاستبدالُ استبدال حرف بحرف، أو حركة بحركة في الكلمة الواحدة، وإمّا دَلالةٌ صوْتيةٌ غير مطّردة، لا تخضعُ لنظامٍ معينٍ أو قواعدَ مضبوطة تُسْتَنْبط من خلال المَلامح والأداءات الصّوتيّة المختلفة، والتي من صورها الأصْوات الثّانوية، أو ما يُطلقُ عليها الأصْوات فوق التركيبيّة suprasegmental phonemes (كالنّبْر والتّنْغيم والوَقْف)[٣١].

ويُعَدّ ابن جنّي رائداً في دراسة الدّلالات الصوتيّة قبل أنْ يتوسعَ فيها علمُ اللّسانيات الحديثة، وكانَ على دراية بهذا النّوع من دلالات الألفاظ؛ نجدُ ذلك في كتابه (الخصائص) فهو يولي اهتماماً كبيراً بالمعنى الصّوتي (للدّلالة الصّوتيّة)، وقد خصّصَ جزءاً كبيراً منه

لذلك، وتناولَ هذا الأمر بالبحث والدراسة في أبوابٍ مختلفة منه مثل: (باب في الاشتقاق الكبير)، و(باب في تَصاقبُ الألفاظ لتَصاقبُ المعاني)، و(باب في إمْساس الألفاظ أشْباه المعاني)[٣٢]، وغير ذلك مما جاءَ متفرقاً في أبواب الكتاب، ونشيرُ هنا إلى أنّ الدَّلالةَ الصّوتيّة عنده نجدُها تحتَ اسم الدلالة اللفظيّة، وهي عندَه من أقْوى الدَّلالات إذْ يقول: " اعْلم أنّ كل واحد من هذه الدلائل معتدّ مراعًى مُؤثّر، إلا أنها في القوة والضعف على ثلاث مراتب: فأقواهن الدلالة اللفظية، ثم تليها الصناعية، ثم تليها المعنوية "[٣٣]، فلكلّ دَلالة من هذه الدلائل دَورها الفعّال في تحديد المَعنى ولهذا يجبُ أنْ تُأخذَ كلّها في الحُسبان، إلاّ أنّ الدَّلالةَ الصوتيّة (اللفظيّة)- عند ابن جنّي- تعدّ أقوى من الدَّلالتين الصناعيّة (الصرفيّة) والمعنويّة (النحويّة)، وأرجعَ سببَ قوّة الدَّلالة اللفظيّة إلى أنّ معرفتَها تتوقّفُ على الأصْوات المكوّنة للكلمة " ألا ترى إلى قام، و(دلالة لفظه على مصدره) ودلالة بنائه على زمانه، ودلالة معناه على فاعله. فهذه ثلاث دلائل من لفظه وصيغته ومعناه. وإنما كانت الدلالة الصناعيّة أقوى من المعنويّة من قِبَل أنها وأنْ لم تكن لفظاً فإنها صورة يحملها اللفظ"[٣٤].

فـ (قام) مثلًا، بوحداتها الصّوتيّة تدلُ على القيام، أي أنّنا وقفنا على الحدث من خلال لفظ الفعل، وهكذا كلّ فعلٍ بأصواته يؤدّي معنى الحدث " فالضرب والقتل نفس اللفظ يفيد الحدث فيهما[٣٥] أي أنّ كلّ واحدٍ منهما يدلّ على حدثٍ مغايرٍ للآخر تبعاً لاختلاف لفظيهما أي أصواتهما.

ويمكنُ تقسيم الدَّلالة الصّوتيّة عند ابن جنّى على قسْمين:

١: الدّلالةُ الصوتيّةُ الطبيعيّةُ:

وهي ما تؤدّيه الأصْواتُ الصادرةُ عن مظاهرِ الطبيعة المختلة، وكذلك أصْواتُ الإنسان والحيوان من أدوارٍ في تحديد المعنى، فهي ذاتُ علاقة بنظرية المحاكاة (تقليدُ أصْوات الطبيعة) في نشأة اللّغة أو ما يعرفُ بالعلاقة الطبيعيّة بين الدّال والمدلول.

٢: الدّلالةُ الصوتيّةُ التحليليّةُ:

تلك الدَّلالة التي تُسْتَنْبط من:

أ: دَلالة الفونيمات التركيبيّة Segmental Phonemes، مثل الحُروف(الصوامت)، والحَركات (الصّوائت).

ب: دَلالةُ الفونيمات غير التركيبيّة: Suprasegmental Phonemes، مثل النَّبْر والتَّنْغيم، وغيرها من الفونيمات غير التركيبيّة التي لا تَظهرُ في التركيبِ، وإنّما تُفهم من خلالِ الأداءات الصّوتيّة المختلفة.

١: الدّلالة الصوتيّة الطبيعيّة:

المقصودُ من الدَّلالة الصّوتيّة الطبيعية تلك الدَّلالة الطبيعيّة بين الدّال والمَدلول التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنظرية مُحاكاة وتَقليد أصْوات الطبيعة في نشأة اللّغة وأصلها، وهي نَظريةٌ بُنيت على أساسِ وجودِ مناسبةٍ طبيعيةٍ بين اللّفظ ومَعناه كحكاية الأصْوات، مثل القَهْقَهة(حكاية صَوْت الضّحك)، وغاق (حكاية صَوْت الغراب).....الخ[٣٦]

وذهبَ العلماء إلى أنّ العربي بطبيعته كانَ يربطُ بين الصّوت والمعنى، فيختارُ لكلّ لفظٍ حرفاً ذات صفةٍ تشاكلُ معناه وتناسبُه من حيث القوّة والضّعف، وإمعاناً في التأكيد على الصلة الوثيقة بين الصوت والمعنى نستعرض كلمة "خرير"، فيحس السامع بأن صوت حركة الماء يشبه صوت هذه الكلمة وكذلك كلمة "هديل": يحس السامع بأنها تنسجم مع موضوعها من بابين: بالصوت الذي تصدره الحمامةُ وعلاقته بصوتِ الكلمة، ورقّة الكلمة، التي تشتملُ على حرف همس (الهاء)، وحرفين رقيقين (الدال واللام)، وبينهما حرف مدّ، وعلى هذا فالدلالة هي إثارةُ اللفظ للمعنى الذهني، أي لمدلوله، وعلم اللّغة يبحثُ في هذه الصلة بين اللفظِ والصوت والمعنى، واللغة العربية دون غيرها تتفردُ بهذه الغزارة في الارتباطِ بين الصوت والمعنى[٣٧].

إنّ المتأملَ في نظريةِ المحاكاة الطبيعيّة يرى بما لا يَدعُ مجالاً للشكّ أنّها تقولُ بتقليد أصْوات الطبيعة في نشأةِ اللّغةِ الإنسانية وأصلها، فهي في نظرِها جاءت مُحاكاةً لصدى المسموعات من عوارضِ الطبيعة كالرّيح والرعد والماء وأشباه الكائنات الحيوانية[٣٨].

وترتبطُ حكايةُ الأصْواتِ المسموعةِ ارتباطاً وثيقاً بالمذهبِ الطبيعي الذي تَقبّله ابن جنّي واطمأن إليه إذْ يقول: " أصل كلّ اللغات يأتي من الأصوات المسموعة مثل دوي الريح،

وحنينِ الرعد، وخريرِ الماء، وشحيجِ الحمار، ونعيقِ الغراب، ونزيبِ الظبي، وهكذا، ثم ولدتِ اللغات عن ذلك فيما بعد"[٣٩].

٢: الدّلالةُ الصّوتيّةُ التحليليةُ:

المقصودُ بها هنا تلك الدَّلالة الصوتيّة التي تتحققُ جرّاء الإحلال بين الصوامت والصوائت (الحروف والحركات) المختلفة أو ما يُعرف بالفونيماتِ التركيبية، او تُستَنبطُ من خلال مختلف الأداءات الصوتيّة التي أصطلحَ عليها بالفونيمات الثانوية باعتبارها ملامح صَوْتيةٍ غير تركيبيّة مصاحبة تمتدّ عبر أطوالٍ متنوعةٍ في الأداءِ الصّوتي، وتشاركُ في تنوّع معاني الكلام مثلما تشارك فيه الأصوات التركيبية، وذلك مثل النَّبْر والتَّنْغيم والوَقْف ،..... الخ[٤٠].

٣: دلالةُ الأصواتِ التركيبية:

يطلقُ العلماءُ على الأصواتِ الصامتة والأصوات الصائتة الصّوتَ المقطعي الأوّلي أو الصّوت التركيبي، " ويشملُ الصّوت التركيبي ما يسمى بالسواكنِ والعلل وهي تعدّ جزئيات صَوْتية تستخدمُ في تركيب الحدث الكلامي "[٤١]، وتنقسمُ دلالةُ الأصواتِ غير التركيبيةِ إلى قسمين:

أ: الدّلالةُ الصّوتيّةُ للصوامت (الحروف): إنّ تقبّلَ ابن جنّي لمذهبِ المحاكاة في نشأةِ اللّغة، وثقتَه العميقة في هذا المذهب الذي يقولُ بأنّ اللّغة نشأتْ محاكاةً لأصواتِ الطبيعة، جعلَ البابَ أمامَه مفتوحاً على مصراعيه، للبحثِ فيما هو أدقّ من حكايةِ الأصوات المسموعة، ويتجلى ذلك بوضوحٍ في ما ذكره في معرضِ حديثه عن نشأةِ اللّغة، فهو قد وجدَ أنّ كثيراً من هذه اللّغة مضاهياً بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبّر بها عنها[٤٢].

وقَدْ لاحظ أيضاً أنّ دقّةَ المعنى تتفقُ مع جرسِ الحَرْف المختار فكأنّ هناك اختياراً مقصوداً للصَوْت ليؤدّي المعنى المغاير لما يؤديّه الصّوت الأخر، وهذا يؤكّد أنّه لم يكن واضعاً في حسابه معالجةَ حكاية الأصوات الطبيعية فحسب، بلْ كانَ مشغولاً إلى جانبِ ذلك بإبراز القيمة البيانيّة للحَرف العربي معتمداً في ذلك على مخرجه وصفاته، ومن الأمثلة

التي عَرضها ابن جنّي وحللّها، (قَضِم، خَضِم)، قالوا القَضْم في اليابس والخَضْم في الرطب وذلك لقوّة القاف وضعف الخاء، فجعلوا الحَرْف الأقوى للفعل الأقوى، والصّوت الأضْعف للفعل الأضعف(٤٣).

ويقول مبيناً الفَرْق في المعنى بين (صعد)، (سعد):" ومن ذلك قولهم: صعد وسعد، فجعلوا الصاد -لأنها أقوى- لما في أثر مشاهَد يُرى، وهو الصعود في الجبل والحائط، ونحو ذلك. وجعلوا السين - لضعفها - لما لا يظهر ولا يشاهَد حسّا، إلا أنه مع ذلك فيه صعود الجَدّ لا صعود الجِسم، ألا تراهم يقولون: هو سعيد الجَدّ، وهو عالي الجَدّ، وقد أرتفع أمره، وعلا قَدْره، فجعلوا الصاد لقوتها، مع ما يشاهَد من الأفعال المعالَجة المتجشَّمة، وجعلوا السين لضعفها، فيما تعرفه النفس وإن لم تره العين، والدلالة اللفظية أقوى من الدلالة المعنوية"(٤٤).

ويذهب ابن جنّي مذهباً أبعدَ من الدَّلالة الصوتيّة للحرف، فقد وجد أنّ الحروف تُرتّب في اللّفظ ترتيباً يساوق الحدث الذي تعبّر عنه وذلك لأنّ اختيارَ الحروف يمكّن المرء أنْ يضيفَ ويدرك أصواتها مع الأحداث التي تعبّر عنها بترتيبها، وتقديم ما يتزامن مع بداية الحدث، وتأخير ما يزامن نهايته، وتوسيط فيما يزامن أوسطه، سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود، والهدف المطلوب(٤٥).

وقد لاحظ التّقاربَ الصوتي في الألفاظ ذوات المعاني المتقاربة، وعملَ على تبيان ذلك بدراسة - هي أقربُ إلى التحليلِ - لجمهرةٍ من الفاظ العربيّة مما تقاربت ألفاظه لتقارب معانيه. ودافعه إلى ذلك شيوع هذه الخصيصة، واتّساع بابها، وتركها غُفْلاً من أيّ دراسة سابقة عليه، ووصفه بأنه: "غورٌ من العربية لا يُنتَصف منه ولا يكاد يُحاط به، وأكثر كلام العرب عليه، وإن كان غُفْلاً مسهوّا عنه"(٤٦).

إنّ ابن جنّي قد فطنَ إلى الدَّلالة الصوتيّة للصوامت العربيّة المختلفة، بوصفها حروفاً ذات قيمٍ تعبيريّة اكتسبتها من طريق انتمائها إلى مَخرجٍ واحدٍ، وبوصفها فونيمات وظيفية، يؤدّي تبادلُ مواقعها في الكلمة الواحدة إلى التأثير على المعنى.

ب: دَلالة الحركات البنائية:

مما لا شك فيه أنّ الحَركات - الطويلة منها والقصيرة - تؤثّر في تحديد المعنى وتنويعه،

إذْ غالباً ما تصادفنا صيغ تتّفقُ في عددِ الصوامت وطبيعتها وترتيبها وحركاتها باستثناء حركة واحدة، إلاّ أنّ هذا الاستثناء يؤدّي إلى اختلاف دَلالة المعنى المعجميLexical Meaning للمادة الواحدة. فالحركات لها دلالة صَوْتية، فهي ذات وظيفة فونيمية أقربُ إلى وظيفة الحروف في تغيير معاني الكلمات إذْ الحركة صَوْت في الكلمة وجزء لا يتجزأ منها فحركة الحَرْف لا تنفصل في أثناء نطقه ولا عبرة بكتابتها منفصلة عنه(٤٧).

ومن الأمثلة على الأبنية الصرفية ما ساقه في باب تلاقي اللّغة إذْ بيّن أنّ باب أجْمع وجَمْعاء هو اتفاق وتوارد وقع في اللّغة؛ لأن باب أفْعل وفَعْلاء، إنما هو للصفات، وجميعها تجيء على هذا الوضع نكرات نحو أحْمَر وحَمْراء وأبْلَق وبَلْقاء. وأما أجمع وجمعاء فاسمان معرفتان وليسا بصفتين، فإنّما وقع ذلك بين الكلم المؤكد بها"(٤٨)، فبناء أفْعل وفعْلاء خاص بالوصفِ النكرة، من نحوِ أحْمر وحمْراء وهذا بابها، لكنّه في بعضِ الأحيان قد يأتي اسما عندها يخرجُ لغرضٍ آخر هو التوكيد. ومن الأبنيةِ التي عرضَ لها ابن جنّي بناء: (عالم وعلماء). ويستشهد هنا بكلام سيبويه؛ إذْ يقول: " قال سيبويه: يقولها من لا يقول عليم - ولكن عندما لم يتم وصف المعرفة إلا بعد ممارستها، أصبح الأمر كما لو كانت غريزة، ولم تكن عند دخوله لأول مرة فيها، ولو كان هكذا لكان مثقفًا غير عالماً، فلما خرج بالفطرة إلى باب فعل صار في المعنى كعليم فكُسِّر تكسيره، ثم حملوا عليه ضدّه؛ فقالوا: جهلاء كعلماء، وصار علماء كحكماء، لأنه محملة لصاحبه وعلى ذلك جاء عنهم فاحش وفحشاء، وكان الفحش ضربًا من ضروب الجهل ونقيضًا للحلم"، فالمعنى هنا هو من أجاز جمع ما جاء من وزن فاعل على فعلاء حملا على معنى فعيل. كما أنّ المعنى هو مَن أجازَ حمل الصّفات السيّئة أو الرديئَة على الصفات الجيّدة كحمل معنى الفحش على الحلم؛ لتجمع على فعلاء. ومن أبنية الأسماء دلالة بناء جميل وجمّال، ووضيء ووضّاء، فزادوا في اللفظ هذه الزيادة لزيادة معناه وهو إرادة المبالغة في ذلك وعليه العديد من الشواهد"(٤٩).

واستمرّ في هذا الاتّجاه، فعَقد بابًا في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني، وبابًا في إمساس الألفاظ أشباه المعاني، وباباً في قوّة اللّفظ لقوّة المعنى، إذْ جَمع أمْثلة توضّح المعنى التعبيري للحرف - (الصّوت) -الواحد في الحالة البسيطة، وكذلك في حالة التركيب(٥٠).

لقد رأى أنّ حرفًا واحدًا يقعُ على صَوْت معيّن، ويقترح المعنى المقابل؛ سواء أكانَ هذا الحَرْف هو الحَرْف الأوّل، أم الأوسَط، أم الأخير، على سبيل المثال الحَرْف في بداية الكلمة: "العَسْف والأسَف، والعين أخت الهمزة، كما أن الأسف يعسف النفْس وينال منها، والهمزة أقوى من العين؛ كما أن أسَف النفس أغلظ من التردد بالعسف، فقد ترى تصاقُب اللفظين لتصاقب المعنيين"(٥١).

وإذا كانَ المعنى التعبيري لحرف واحد، يتبع صَوْتا بسيط يقعُ في بداية الكلمة تارةً، ويسقطُ في منتصفها تارةً أخرى، ويسقط في نهايتها بإيقاعٍ ثالث، وهو يَحملُ دَلالةً مختلفة عن ما يقاربه في المخرج أو الصفة، إذا كان الأمر كذلك، فقد أوضَح معنى الحَرْف عندما يقع بأحرف أخرى، لذلك هو يؤكّد هنا أنّ ترتيب أحْرف الكلمة فيه أسرارٌ رائعةٌ، والحكمةُ هنا أسْمى وأكثر تفصيلًا مما ذكر، وذلك لأنّ العربَ ممكن أنْ يضيفوا إلى اختيار الحروف، ويقارنون أصواتها بالأحداث المعبّر عنها في تصرّفاتهم، وتقديم ما يصادف بداية الحدث، وتأخير ما يصادف نهايته، وتوسيط ما يصادف وسطه؛ سوقًا للحروف على ميزة المعنى المقصود، والغرض المنشود(٥٢).

ويمثل ابن جنّي لذلك بمواد: (بحث، وصدّ، وجرّ). فبحثَ مثلاً تتكون من الباء والحاء والثاء على الترتيب، فالباء لقوتها تشبه بصَوْتها اليد التي تضربُ الأرضَ، والحاء لصحلها تشبه مخالبَ الأسد وبراثن الذّئب ونحوهما إذا غارت في الأرض، والثّاء للنفخ، والبثّ للترابِ، وهذا أمر تراه محسوسا محصّلا(٥٣).

وتجدر الإشارة إلى أن علماءَ غريبِ الحديث تنبّهوا إلى هذا المعنى اللّفظي (الدّلالة الصّوتيّة)، وأوضحوا معنى الصّوت الرّسومي البياني حينَ يأتي في الحديثِ الشّريف ما يسمح لهم بالحديثِ عَن هذه القيمة وعَن هذا المعنى وهو ما ذكره أبو عبيد في حديثِ النبي عليه الصلاة والسلام، وقد ذكر لقب أهل الجنّة: (ويرفعُ أهل الغُرَف إلى غرفهم في درّة بيضاء، ليس فيها قَصْم ولا فصم)(٥٤)، "قوله: القَصْم بالقاف: هو أنْ ينكسر الشيء فيَبِين، يقال منه: قصَمت الشيء فصله فصلاً وكسَره، حتى يظهر ويتّضح، ومنه قيل: فلانٌ أقصم الثّنية إذا كانَ مكسورها، وأمّا الفصم بالفاء: فهو أنْ ينصدعَ الشيء من غير أن يَبين، يقال منه: فصَمت الشيء أفْصمه فَصْماً (بمعنى شقّه وصَدعه من غير فصل)، إذ فعلتَ ذلك به، فهو مفصوم"(٥٥).

وقد استطاع ابن جنّي بحسّه المُرهف، وذكائه الحاد أنْ يؤكّدَ أنّ للصَوْت - سواء أكان تركيبياً كما هي الحال في الحروف (الصوامت) أم الحركات (الصوائت) أم غير تركيبي (كالنّبْر والتّنْغيم) قيمة دلالية، وأنّ ثَمّة دَلالة صَوْتية ناتجة عن العلاقة الطبيعية بين الدّال والمدلول التي تستمدُ جذورها من نظريةِ محاكاة وتقليد أصْوات الطبيعة في نشأة اللّغة.

المبحث الرابع

الظواهر الصوتية عند ابن جني (التنغيم- النبر)

أولًا: النبر:

تعريفه:

النَبر بالكلام لغةً الهمزُ. أو هو وسيلةٌ صوتيةٌ تبرزُ بواسطتها عنصرًا من السلسلة الصوتية، قد يكون مقطعًا أو لفظًا أو جملة. والنّبرُ يكون بواسطة الشدة في النطقِ أو ارتفاع النغمة أو المدّ[٥٦].

النّبر عند ابن جني:

وجديرٌ بالذكر أنْ نشيرَ هنا إلى أنّه على الرغم من ورودِ مصطلح النّبر في البحوث الصوتية القديمة، إلا أنّه كانَ يعني الهمز؛ أي تحقيق نطق الهمزة. ولم يدرس على أنّه الضغطَ على بعضِ مقاطع الكلام.

أمّا عن النّبرِ بوصفه مفهومًا فالدارس للتراث العربي يجدُ غير إشارةٍ لهذا المفهوم عند اللغويين القدماء، وسنركزُ في هذا المقام على ما أشارِ إليه ابن جني في كتابه الخصائص في(باب في مطل الحركات): " وإذا فعلت العرب ذلك[٥٧]، أنشأت عن الحركة الحرف من جنسها، فتنشئ بعد الفتحة الألف، وبعد الكسرة الياء، وبعد الضمة الواو"[٥٨]، ثم يمثّل للألف المنشأة عن إشباع الفتحة ماحكاه" الفراء عنهم: أكلت لحما شاة: أراد لحم شاة، فمطل الفتحة فأنشأ عنها ألفا"[٥٩]، أما عن مطل الضمة فيقول" ومن مطل الضمة القرنفول"[٦٠] والمراد القرنفل.

وذكر أيضا أن" الحركات عند التذكرِ يمطلن حتى يفين حروفا وذلك كقولهم عند التذكر مع الفتحة قُمتَ: قُمتا، أي قمت يوم الجمعة ونحو ذلك. ومع الكسرة أنتي: أي أنتِ

عاقلة، ونحو ذلك. ومع الضمة قُمتُو، في قُمتُ إلى زيد، ونحو ذلك"[٦١].

وفي كتاب الخصائص إشارة أخرى إلى النبر حين يتكلم عن حذف الصفة "وقد حذفت الصفة ودلَّت الحال عليها. وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم: سير عليه ليل، وهم يريدون: ليل طويل. وكأن هذا إنما حذفت فيه الصفة لما دلّ من الحال على موضعها. وذلك أنك تحس في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك. وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته"[٦٢]، وقد حذفت الصفات ودلت الحال عليها مقول (سير ليل).

فالكلمات الواردة في هذا النص: التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم تشير إلى النبر ويتضح هذا من خلال معانيها. فكلمة التطريح تعني تطويل الشيء ورفعه وإعلاءه. والتطويح من طوّح به ذهب هنا وهناك. وأما التفخيم فهو عند اللغويين المحدثين ظاهرة صوتية تحدث عن حركة عضوية تعطي للصوت قيمة صوتية مفخمة[٦٣] ومن خلال عرضنا لمفاهيم هذه الكلمات نجد اتفاقا لهذه المفاهيم مع مفهوم النبر بمعناه الحديث، فهو أيضا عملية عضلية يقصد منها ارتفاع الصوت وعلوه[٦٤].

وهكذا يكون ابن جني قد أدرك النبر بمفهومه الحديث من حيث طول الصوت وعلوه وقوته. وإنْ لم يذكره بلفظه، ووصفه دلاليا أغنى عن التصريح بالأوصاف[٦٥].

ثانيًا: التنغيم.

تعريفه:

يعرف التنغيم على أنه نوع من موسيقى الكلام، بواسطته يتسنى للدارس أن يعرف كثيراً من خصائص الكلام، كالتفريق بين الجملتين المثبتة والاستفهامية، ولا سيما إذا لم توجد صيغ نحوية خاصة تقوم بهذا التفريق. وأكثر ما يوجد في اللهجات العامية[٦٦].

للتنغيم وظائف عديدة، وعلى ما يبدو أنّ أهم وظيفة له هي الوظيفة النحوية، إذ تعدّ الوظيفة الأساسية للتنغيم، فهي العامل الفاعل في التمييز بين أنماط التركيب والتفريق بين أجناسه النحوية[٦٧].

التنغيم عند ابن جني:

قبل الحديث عن مدى وعي ابن جنّي ومعرفته بالتنغيم ودوره ينبغي أن نشير هنا إلى أنّ التنغيم وثيق الصلة بالنبر. فلا يكون التنغيم إلّا على مقطع منبور، يقول تمام حسان:" إن هبوط النغمة أو صعودها أو تحولها عن المستوى، السابق في وسط الكلام أو في آخره، لا يكون إلا متفقا مع النبر. فلا تتحول النغمة هذا التحول إلا على مقطع منبور. وهذه الصلة بين النبر والتنغيم. لا يمكن انفكاكها. ولذلك يكثر أن يقف المرء عند أحد المعاني باحثا عما إذا كان هذا المعنى وظيفة النبر بمفرده أو التنغيم بمفرده. ثم لا يستطيع الجزم بأنّه وظيفة أحدهما على انفراد"(٦٨).

وما يؤكد وعي ابن جني بظاهرة التنغيم في العربية، ودورها الكبير في تحديد دلالات الكلام(٦٩)، ما جاء في (باب في نقض الأوضاع إذا ضامها طارئ عليها)، قوله: " ومن ذلك لفظ الاستفهام إذا ضامه معنى التعجب استحال خبراً وذلك قولك: مررت برجل أي رجل. فأنت الآن مخبرا بتناهي الرجل في الفضل ولست مستفهما، وكذلك مررت برجل أيما رجل، لأن ما زائدة، وإنما كان كذلك لأن أصل الاستفهام الخبر، والتعجب ضرب من الخبر، فكأن التعجب لما طرأ على الاستفهام إنما أعاده إلى أصله من الخبرية"(٧٠).

وقد أشار كمال بشر إلى كلمة النغم الواردة في كلام ابن جني في مقدمة كتابه (سر صناعة الإعراب)، اذ قال: "اعني علم الأصوات والحروف له تعلق ومشاركة للموسيقى لما فيه من صنعة الأصوات والنغم(٧١)؛ فالتعبير بمصطلح (النغم) فيه دلالة واضحة على إدراكه أن الكلام المنطوق يصدر منغما وأن هذا التنغيم جزء لا يتجزأ من خواص الكلام"(٧٢).

من ذك نستنتج أن ابن جني وإن لم يستعمل مصطلح التنغيم إلا أنَّ كلامه تَضَمّن مفهومه، مما دل على وعيه به، ومعرفته لدوره في عملية الفهم والإفهام.

أهم النتائج التي توصل اليها البحث هي:

- يعدّ الفونيم مِن بين أَهمّ المُصطلحاتِ والمفاهيم التي تدورُ في فلكِ علم الأصْوات التركيبي، وتبيّن أنّ ابن جنّي قد فرّق بين الحَرْفِ والصّوت لكنْ ليس كتفريق المحدثين بينهما، ما جعله كثيرا ما يستعمل المصطلحين للدلالة على مفهوم واحد.

وقدْ تفطّنَ لفكرةِ الفونيم، وأدركَ أهمّيةَ الفونيمات في تحديدِ الدّلالة والمعاني الإيحائية، وأدركَ أنّ تغييرَ الفونيمات يؤدّي بالضرورة إلى تغييرِ المعاني.

- سبقَ ابن جنّي علم اللّغة الحديث في الإشارةِ إلى بعضِ المُصطلحاتِ والمفاهيم المحوريّة التي ينبني عليها الدّرسُ الصوتي الحديث؛ كالفونيم والمورفيم. وأثْبتَ أنّ الفونيمَ هو أصغرُ وحدةٍ لغويةٍ لها معنى عندما أثْبتَ أنّ للحرفِ المفردِ معنىً في نفسه؛ كما في قَضم وخَصم؛ فالقاف والخاء بسبب طبيعة صَوْتها هي من أعطت الدّلالة قوةً وضعفاً.

- أدركَ القيمةَ الدّلالية للمورفيم قبلَ أنْ يدركَها علمُ اللّغةِ الحديث؛ فمثلاً حروف المضارعةِ والهمزةِ في بناء (أفعل)، والهاءُ التي تزادُ على بعضِ الأسماء لغيرِ غرضِ التأنيث مثل: علّامة ونسّابة، لها قيمٌ دَلالية.

- المعنى هو جوهرُ النظريّة الدّلالية، وهذا المعنى لا يتحددُ على نحوٍ سليمٍ إلاّ إذا اشتملَ على المستويات الخمسة، وهي: الدّلالة الصّوتيّة، والدّلالة الصرفية، والدّلالة النّحوية، والدّلالة المُعجميّة، والدّلالة السياقيّة، وما يهمُّنا هنا الدّلالة الصّوتيّة.

- برزت الدّلالة الصرفيّة عنده في حديثِه عن مجموعةٍ من المباحثِ الصرفيّة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعنى وما يطرأُ عليه من تغييراتٍ.

- أشار ابن جني إلى النبر في دراساته، وهذا عند حديثه عن حذف الصفة، وإن لم يصطلح على الظاهرة التي وصفها بمصطلح معين، إلا أن ما قاله ووصفه يدل دلالة واضحة على ما تسميه الدراسات الحديثة بالنبر. أما التنغيم فقد أشار إليه ابن جني أيضا دون أن يصطلح عليه بمصطلح معين، واكتفى بوصفه فقط.

- استطاع أن يؤكد أن للصوت سواء كان حرفًا أو حركة قيمة دلالية، وأن ثمة علاقة طبيعية بين الدال والمدلول، ولكن إدراكها لا يتيسر إلا لمن خبر أصوات العربية، واستحضر خصائصها الطبيعية والوظيفية.

هوامش البحث

(١) سر صناعة الإعراب، ابن جنّي، أبو الفتح عثمان، تحقيق د. حسن هنداوي، مكتبة ومطبعة، مصطفي البابي الحلبي، مصر، ٨/١.

(٢) المصدر نفسه، ٩/١.

(٣) سر صناعة الأعراب،٨/١.

(٤) المصدر نفسه، ١ /٩.

(٥) المصدر نفسه، ١ /١٠.

(٦) المصدر نفسه، ١ /٩.

(٧) المصدر نفسه: ١٣/١ - ١٤.

(٨) المصدر نفسه، ١٤/١.

(٩) البحث الصّوتي عند ابن جنّي، زبيدة حنون، جامعة عنابة، مجلة اللّغة العربية، العدد (١٥)، ص٩٥.

(١٠) سر صناعة الاعراب، ١ /٦.

(١١) سر صناعة الاعراب،٤١/١.

(١٢) المصدر نفسه: ٥٠/١.

(❖) وقد أشار عبد الصبور شاهين إلى أن هذين الصوتين لهما وصفان يدلان على صوت واحد، ينظر: في التطور اللغوي، ص ١٨٦-١٨٨.

(١٣) سر صناعة الإعراب: ٤٦/١.

(١٤) المصدر نفسه: ٤٥/١-٤٦.

(١٥) سر صناعة الإعراب: ١٤/١.

(١٦) المصدر نفسه: ١٩/١.

(١٧) المصدر نفسه: ٢٢/١.

(١٨) الصّوت والدلالة دراسة في ضوء علم التراث وعلم الحديث، محمد أبو عمامة، سوريا، العدد ١، ص١١.

(١٩) سر صناعة الإعراب، ١/ ٢٨.

(٢٠) المصدر نفسه: ١٩/١.

(٢١) علم اللّسان العربي، مجاهد عبد الكريم، الشركة العربية المتحدة، القاهرة مصر، ص٣٢.

(٢٢) الخصائص، ابن حنّي، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٥٢/٢.

(٢٣) نفسه:٢ / ١٥٢-١٥٣. المصدر.

(٢٤) المصدر نفسه: ١٥٧/٢.

(٢٥) المصدر نفسه: ١٥٧/٢-١٥٨.

(٢٦) محمد بوعمامة، الصّوت والدلالة دراسة في ضوء التراث وعلم اللّغة الحديث، مرجع سابق،ص١٢ .

(٢٧) الخصائص، ١٥٧/٢-١٥٨.
(٢٨) دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، ص٣٥.
(٢٩) الدلالة الصّوتية والصرفية في سورة يوسف في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ومناهجها، نادية رمضان، بحث منشور بكتاب المؤتمر العلمي التاسع بكلية دار العلوم، ص٢.
(٣٠) التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، دراسة في الدلالة الصّوتية والنحوية والصرفية والمعجمية، محمود عكاشة، ط١، دار النشر للجامعات، القاهرة، مصر، ص١٧-١٨.
(٣١) الدلالة اللغوية عند العرب، عبد الكريم مجاهد، دار الضياء للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، ص١٦٦.
(٣٢) الخصائص: ١٤٥/٢-١٥٢.
(٣٣) المصدر نفسه: ٩٨/٣.
(٣٤) المصدر نفسه: ٩٨/٣.
(٣٥) ينظر: التفكير اللّساني في الحضارة العربية، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب،ص١٦٦.
(٣٦) الخصائص: ٤٦/١-٤٧.
(٣٧) اللغة بين الصوت والدلالة، علي الكاملي، جدة، السعودية، بحث متاح على الموقع الالكتروني: https://www.okaz.com.sa/specialized-corners/main-language.
(٣٨) المصدر نفسه.
(٣٩) الخصائص: ٤٧١/١.
(٤٠) المصدر نفسه: ٤٦/١-٤٧.
(٤١) المصدر نفسه: ١٦٤/٢.
(٤٢) المصدر نفسه: ١٦٥/٢.
(٤٣) المصدر نفسه، ٢ \ ١٥٧-١٥٩.
(٤٤) ينظر: المصدر نفسه،١٥٧/٢-١٥٨،وعلم اللغة العام، الأصوات، كمال بشر، دار المعارف،مصر،ص١٠٩.
(٤٥) المصدر نفسه: ١٦١/٢، وينظر: الأصوات اللغوية، مصدر سابق، ص٢٨.
(٤٦) ينظر: تاريخ آداب العرب الرافعي،١٤٥/١.
(٤٧) الخصائص: ١٤٥/٢، وينظر: اللّغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان ص٧٢.
(٤٨) الخصائص: ٣٢٤/١.
(٤٩) ينظر: الخصائص: ١/ ٣٨٣، باب في تركيب اللغات.
(٥٠) المصدر نفسه: ١١/٣.
(٥١) المصدر نفسه: ١٤٨/٢.
(٥٢) دراسات في فقه اللغة، صبحي الصالح، ص١٤٢.
(٥٣) الخصائص، ١/ ٥٥٥.
(٥٤) المصنف في الحديث والآثار، الكوفي،١ /٤٧٧.

(٥٥) المصنف في الأحاديث والآثار، ٤٧٧/١.
(٥٦) غريب الحديث وما بعدها؛ لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، الهيأة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٤م، حسين محمد محمد شرف، ٣/ ٢٩٤.
(٥٧) الخصائص: ١٢٣/٣.
(٥٨) ينظر: المصدر نفسه: ١٢٣/٣.
(٥٩) ينظر: المصدر نفسه: ٣/ ١٢٣.
(٦٠) المصدر نفسه، ٣/ ١٢٦.
(٦١) المصدر نفسه، ٣/ ١٣١.
(٦٢) ينظر: الخصائص، باب في شجاعة العربية، ٢\ ٣٧٢.
(٦٣) ملامح الصوتيات التركيبية عند ابن جني، من خلال كتاب الخصائص وسر صناعة الاعراب والمصنف، سميرة بن موسى، الجزائر (٢٠١٢)، ص٨٥.
(٦٤) الدلالة الصوتية في اللغة العربية، صالح سليم الفاخري، المؤسسة الثقافية الجامعية، الإسكندرية مصر(٢٠٠٧)، ص١٩٧.
(٦٥) علم اللسان العربي، مرجع سابق، ص٣٣-٣٤.
(٦٦) المعجم المفصل في علوم اللغة، محمد التونجي، وراجي الأسمر، ١/ ٢٠٧.
(٦٧) المصدر نفسه، ٥٤١/١.
(٦٨) اللغة العربية معناها ومبناها: ٢٣٠.
(٦٩) دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم، خالد قاسم دومي، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط،١، ص١٥١.
(٧٠) الخصائص، ٣/ ١٩٢.
(٧١) سر صناعة الإعراب، ١/ ٢٢.
(٧٢) علم اللغة العام، الأصوات، مرجع سابق: ٥٥٠.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: الكتب:

- الأصوات اللّغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة نهضة مصر، القاهرة. ط ٢، ١٩٥٠.
- أسس علم اللغة، ماريو باي، ترجمة: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة. ط ٨، ١٩٩٨.

- التحليل اللّغوي في ضوء علم الدّلالة، دراسة في الدّلالة الصّوتيّة والنحويّة والصرفيّة والمعجميّة، محمود عكاشة، ط١، د.ت، دار النشر للجامعات، القاهرة، مصر.
- التفكير اللّساني في الحضارة العربية، عبد السلام المسدّي، الدار العربية للكتاب. ط ٢، ١٩٨٦.
- الخصائص، ابن جنّي، تحقيق النجار، محمد علي، دار المكتبة العلمية، بيروت- لبنان، ط ١، ١٩٥٢.
- دراسات في فقه اللّغة، صبحي الصالح، دار العلم للملايين للطباعة والنشر، ط ١، ١٩٦٠.
- دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم، خالد قاسم دومي، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط ١، ٢٠٠٦.
- دلالة الألفاظ، ابرهيم أنيس، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ط ٣، ١٩٧٦.
- الدلالة اللّغوية عند العرب، عبد الكريم مجاهد، دار الضياء للنشر والتوزيع، عمان- الأردن.١٩٨٥.
- سر صناعة الإعراب، ابن جنّي، أبو الفتح عثمان، تحقيق د: حسن هنداوي، مكتبة ومطبعة مصطفي البابي الحلبي، مصر، ط ١، ١٩٥٤.
- الصوتيات والفونولوجيا، مصطفى حركات، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ط ١، ١٩٩٨.
- علم اللّغة العام، الأصوات، كمال بشر، دار المعارف مصر، ط٥، ١٩٨٠.
- علم اللّسان العربي، عبد المجيد مجاهد، الشركة العربية المتحدة، القاهرة مصر، د.ط، ٢٠١٠.
- غريب الحديث؛ الهروي، أبي عبيد القاسم، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، تحقيق: د. حسين محمد شرف، ط ١، ١٩٨٤.
- الفائق في غريب الحديث، الزمخشري، محمود بن عمر، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، لبنان ط٢، د. ت.
- في التطور اللّغوي، عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٩٨٥.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت، لبنان.
- اللّغة العربية معناها ومبناها، تمّام حسان، عالم الكتب للنشر والتوزيع والطباعة، القاهرة،٢٠٠٩.
- ملامح الصوتيات التركيبية عند ابن جني، سميرة بن موسى، من خلال كتاب الخصائص وسر صناعة الاعراب والمصنف، الجزائر(٢٠١١-٢٠١٢).
- المصنف في الأحاديث والآثار، عبد الله بن محمد الكوفي، (كتاب الصلوات - في فضل الجمعة ويومها)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ١٩٨٩.

- المعجم الوسيط، إبراهيم انيس، وآخرون، مجمع اللغة العربية، القاهرة، الجزء الثاني، ط٢.

ثانيًا: البحوث المنشورة في المجلات العلمية والمواقع الالكترونية:

- الدّلالة الصرفيّة في كتاب الخصائص لابن جنّي: دراسة وصفيّة تحليليّة، قواقزه، عثمان سالم بخيت، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد٤٦، العدد ١، ٢٠١٩.

- الدلالة الصّوتيّة والصرفية في سورة يوسف في ضوء الدراسات اللّغوية الحديثة ومناهجها، النجار، نادية رمضان، بحث منشور بكتاب المؤتمر العلمي التاسع بكلية دار العلوم، ٢٠٠٧.

- الصّوت والدلالة دراسة في ضوء علم التراث وعلم الحديث أبو عمامة، محمد، شبكة صَوْت العربية. www.okaz.com.sa/specialized-corners\ /main-language.

- البحث الصّوتي عند ابن جنّي، حنون، زبيدة، جامعة عنابة، مجلة اللّغة العربية، العدد (١٥)، ٢٠٠٦.

- التفكير الصوتي عند العرب في ضوء سر صناعة الإعراب، هنري فليش، تعريب وتحقيق عبد الصبور شاهين، وهو مقال نشر في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ع ٢٣ سنة ١٩٦٨ م